﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبة الآية وجهان:

بَعدَ وعيدِ المفترين تحسُن تسليةُ سيّد المرسلين

الأول: بعد أنْ ذَكَرَ الله تعالى جُملةً من أحوال المُفْتَرِينَ ومذاهبهم، والردَّ عليهم، ومُحاوَرَةَ الرَّسولِ ﷺ لهم، وذكر فضْلَهُ تعالى على النّاسِ، وأَنَّ أكثر النّاس لا يشكرون؛ جاءت هذه الآية ليحصل بها تمامُ السُّلوان والسُّرور للنَّبيِّ ﷺ وللمُطيعين، وتمامُ الخوف للمذنبين، وهو كونه تعالى عالمًا بعملِ كلِّ واحدٍ، وما في قلبه من الدَّواعي والصَّوارف[1].

الثاني: لَمّا ذكّر الله تعالى عبادَه بفضله، وما يجبُ عليهم من شُكرِه، وبيَّن أنَّ أكثرهم لا يشكرون؛ عطفَ على ذلك تذكيرهُ لهم بإحاطةِ علمه بشؤونهم وأعمالهم كلِّها؛ صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وبكلِّ ما في العوالم علويِّها وسفليِّها؛ ليحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته فقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَأْنٍ﴾: الشِّينُ والهمزة والنّون أصل واحِدٌ يَدُلُّ على ابتغاء

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/272، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/78، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/362.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/338.

وطلب[1]، والشَّأْنُ: الخَطْب والأمر[2] والشأن: الحال والمنزلة والقدر، يقال: رجلٌ من ذَوي الشَّأْن والخَطْبِ، وجمعُه شُؤونٌ[3]. والشّأْنُ لا يقال إلا فيما يعظم من الأحوالِ والأمور، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: 29][4].

والمراد بـ ﴿شَأْنٍ﴾ هنا عمل من الأعمال، أو الأمر والحال العظيم[5].

2) ﴿تُفِيضُونَ﴾: الفاء والياء والضّاد أَصْلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جريان الشَّيْءِ بِسُهولَةٍ، يُقال: أفاض إناءه: إذا ملأه حتى فاض، وأفاض القوم من عرفة: إذا رجعوا ودفعوا، وأَفاضَ القَوْمُ في الحديث: أخذوا فيه، واندفعوا فيه، والفيضُ: الكثير[6]، وأفاضوا في الحديث: خاضوا فيه، وحديث مُسْتَفِيضٌ: منتشر[7]. ومعنى ﴿تُفِيضُونَ﴾ في الآية موافق للمعنى اللغوي، أي: الدخول في العمل، فتفعلونه، وتخوضون فيه، وتندفعون فيه، وتنشرون القول، وتأخذون فيه، وتتكلمون[8].

3) ﴿يَعْزُبُ﴾: عزب: العين والزّاي والباء أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على تباعد وتنحٍّ، والعَزَبُ: الذي لا أهلَ له، يقال: عَزَبَ حِلْمُ فلانٍ، أي: ذهب، وكلُّ شيءٍ يَفوتُك حتى لا تقدرَ عليه، فقد عَزَبَ عنك، ولا يَعْزُبُ عن اللّه شيءٌ[9]، وعَزَب يَعْزُبُ ويَعْزِبُ: غابَ وبَعُدَ، والعُزوبُ: الغَيْبَةُ، والذهاب، والعُزّابُ: الَّذِينَ لا أزواجَ لهم[10]، والعازِبُ: المتباعدُ في طلب الكلأِ عن أهله[11].والمراد بـ ﴿يَعْزُبُ﴾ في الآية موافق للمعنى اللغوي، والمعنى: لا يغيب، ولا يخفى عن علم اللّه شيء، ولا يبعد عنه، ولا يفوته شيء[12].

4) ﴿مِّثْقَالِ﴾: (ثقل): الثّاءُ والقاف واللّامُ أصلٌ واحدٌ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ كلماتٌ مُتَقارِبَةٌ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شأن).
(2) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (شأن).
(3) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (شأن).
(4) الراغب، المفردات، ص: 470.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/114، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فيض).
(7) الراغب، المفردات، ص: 648.
(8) البغوي، معالم التنزيل: 2/424، والقرطبي، أحكام القرآن: 8/356، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/172.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).
(10) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزب).
(11) الراغب، المفردات، ص: 564.
(12) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/128، والبقاعي، نظم الدرر: 3/460.

وهو ضِدُّ الخِفَّة[1]، والتَّثْقِيلُ: ضِدُّ التَّخْفِيف، والثِّقْلُ: واحدُ الأثقال[2]، والأثقال: الأحمال الثقيلة، ومِثْقالُ الشَّيْءِ: ميزانُهُ من مِثْلِه، وقوله تعالى: ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: زنةِ ذرَّة[3]، والمِثْقال: ما يوزن به، وأصله في الأجسام، ثم يُقال في المعاني[4]، وكُلُّ شيءٍ له قدر ووزنٌ يُنافَسُ فيه؛ فهو ثِقْلٌ[5].

والمراد بـ﴿مِّثْقَالِ﴾ في الآية: الوزن[6]، ومعنى قوله تعالى: ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: زنةِ نَملةٍ صَغيرةٍ، أي: ما يساوي في الثِّقل نملة صغيرة أو هباء[7]، على تفسير الذرَّة بأنَّها أَصغرُ النَّملِ، ويضرب بها المثل في الصغر، وتُطلقُ الذرَّة كذلك على الدقيقة من الغبار الذي يُرى في ضوء الشمس[8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الله تعالى رقيبٌ على العباد ومحيطٌ بكلِّ شيءٍ علمًا ورعايةً

يقول الله تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: وما تكون في أيِّ حالٍ من أحوالك الخاصة بك أو العامة التي تدعو فيها إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن ينزل عليك، ولا تعملون - أيُّها الناس - مِنْ عَمَلٍ صغير أو كبير تندفعون فيه بسرعة وخفَّة إلّا كُنّا عليكم شُهودًا فيه، فلا يخفى علينا أصغرُ الأشياء، وإنْ خفَّ في الوزن كلَّ الخِفَّة، ولا أكبرها وإنْ عَظُمَ، وثَقُلَ وزنه؛ إذ هو معلومٌ ومُحصًى في كتابٍ مرقومٍ عظيمِ الشأن تامِّ البيان، وسنجازيكم عليه، فليكنْ عملكم - أيُّها النّاس - فيما يُرضي ربَّكم عنكم[9].

(1) ابن فارس مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (ثقل).
(2) زين الدين الرازي، مختار الصحاح: (ثقل).
(3) الجوهري، الصحاح: (ثقل)، والزَّبيدي، تاج العروس: (ثقل).
(4) الراغب، المفردات، ص: 175.
(5) الكفوي، الكليات، ص: 323.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/128.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(8) المراغي، تفسير المراغي: 11/127.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 15/117، والحجازي، التفسير الواضح: 2/73 - 74.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَمَا﴾:

تحتملُ الواو معنيين هما:

شـأنُ النَّبـيِّ عظيم إذ يأتي ذكـرُه بلسمًا شافيًا بعد ذكر من سواه

الأوَّل: أن تكون الواو للعطف، وهو من عطف الجملة على الجملة، والغرض على الغرض، فبَعْدَ أنِ انتهى النَّصُّ القرآني مِن ذكرِ المفترين وتوعُّدِهم على افترائهم وعدم شكرهم لنعم الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ جاء الغرضُ الثاني: وهو الوعدُ بالثّواب للرسول على ما هو قائمٌ به من تبليغ أمر الله، وتدبير شؤون المسلمين، وتأييد دين الإسلام، وبالثواب للمسلمين على اتِّباعهم الرسولَ فيما دعاهم إليه[1].

الآخر: أن تكون الواو استئنافيَّة[2]، أي: إنَّها جاءتْ لتستأنف كلامًا جديدًا يُخاطَب به النبيُّ ﷺ وتُعْلِمُه أنَّ الله يعلمُ كلَّ شأنٍ فيه، وفيمن معه.

معنى ﴿وَمَا﴾:

كـلُّ شـؤونـه ﷺ وأحـوالـه هي بعلمِ الله ومَعيَّتِهِ

﴿وَمَا﴾ في الموضعين: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ و﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتْلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ نافية[3]، ودلَّ عليها ما بعدها، ولذلك عَطَفَ بإعادة (لا) النافية، وأَوْجب بـ (إلا) بعد الأفعال لكونها منفيَّةً[4]، وفائدةُ كونها نافيةً: هو توكيدُ خطابِ الله لنبيِّه ﷺ وللمؤمنين، أي: لستَ في شأنٍ، يعني من عبادةٍ أو غيرها، ولست تتلو من قرآن، وما تعملون أنت ومن معك جميعًا أيَّ عملٍ إلّا وربُّك مطَّلعٌ عليكم، كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ [المجادلة: 7] أي: إلّا هوَ شاهدهم[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/211.

(2) الدعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/33.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/354، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/78، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/211.

(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/228، وابن عادل الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب: 10/362.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/356، والفراء، معاني القرآن: 1/470.

نكتةُ استعمالِ: ﴿تَكُونُ﴾ مع: ﴿شَأْنٍ﴾:

في كـلِّ أحـوالِـه وشـؤونـه عـينُ الله تراهُ ومعيَّته ترعاه

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿تَكُونُ﴾، وهو فعلُ كونٍ، واستعمل لفظة ﴿شَأْنٍ﴾ وهي مصدر (شَأَنَ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾، والمراد به الأحوال العظيمة، ومعلوم أنَّ المصدر هو اللفظ الدالُّ على حدث الفعل المجرد من الزمان، متضمِّنًا أحرف فعله، فهو يدلُّ على الحدث من حيث تعلُّقه بفاعله، ولكن على وجه العموم والإبهام، غير مقيَّد بزمن، وقال ابن جني: "وهذا طريق المصدر لمّا كان جنسًا لفعله، ألا ترى أنَّه إذا قام قومةً واحدة؛ فقد كان منه قيام، وإذا قام قومتين؛ فقد كان منه قيام، وإذا قام مائة قومةٍ؛ فقد كان منه قيام"[1].

إذًا المقصودُ من التعبير التركيزُ على جنس الشأن، وهي أحوال النبيِّ ﷺ العظيمة، وأنَّها أحوالٌ دائمةٌ منه لا تنفكُّ عنه في الماضي والحاضر والمستقبل، يقول الراغب: "وما استعمل منه - أي فعل الكون - في جنس الشيء متعلِّقًا بوصفٍ له هو موجود فيه؛ فتنبيه على أنَّ ذلك الوصف لازمٌ له، قليلُ الانفكاك منه"[2].

كما أنَّ مجيء هذا المعنى في قالب الجملة الاسميَّة التي تفيد الثبات والرسوخ، ومجيء ﴿تَكُونُ﴾ بصيغة المضارع الذي تفيد الدوام والاستمرار؛ أفادَ ذلك، وهو ملازمةُ هذه الأحوال العظيمة ومصاحبتها للنبيِّ ﷺ في كلِّ وقتٍ وعلى كلِّ حال، وأنَّ أيَّ أمرٍ من النَّبيِّ ﷺ، قلَّ أو كَثُرَ، فإنَّما هو في عينِ الله ومشاهدته سبحانه.

دلالة صيغة المضارعِ في: ﴿تَكُونُ﴾:

الله مع نبيِّه على الـدَّوام في كـلِّ شؤونِه وأمورِه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ بصيغة المضارع في ﴿تَكُونُ﴾؛ لأمرين:

(1) ابن جني، الخصائص: 1/25.
(2) الراغب، المفردات، ص: 730.

الأول: ليتمَّ الترابط الأكمل بين حال النبيِّ ﷺ، وكلِّ شأنه وبين شهادةِ الله ومعيَّته له، فالمضارع في ﴿تَكُونُ﴾ أعطى معنى الاستمرار والتجدُّد والدوام، وقوله: ﴿كُنَّا﴾ تفيد معنى الأزليَّة[1]، أي: علمه بحال النبيِّ ﷺ وشؤونه علمٌ إحاطةٍ، ومع شمول علم الله تعالى شمول الرعاية، ثمَّ شمول الرقابة.

الثاني: لإفادةِ استحضار الحال العظيم من شأن النَّبيِّ ﷺ ومن قراءته القرآن، والدعوة إلى الله، وتصوير هذا المشهد العظيم، ولذلك سُبقتْ ﴿تَكُونُ﴾ بحرف النفي ﴿وَمَا﴾ الذي "أصله أنْ يخلِّص المضارع للحال[2].

ومعنًى ثالثٌ لطيفٌ: وهو أنَّ ما يكون للنَّبيِّ ﷺ فهو بتكوينه ﷻ، فالله معه في كلِّ تكوينٍ وحركةٍ وسكونٍ، وهذا المعنى حاصلٌ لجميعِ المخلوقين، لكنَّ النَّصَّ عليه تشريفٌ لسيِّد العالمين.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

النَّبيُّ ﷺ والحقُّ متلازمان في جميع الأحوال

حرفُ ﴿فِي﴾ يأتي للظرفيَّةِ المكانيَّة والزمانيَّة، وربما تأتي حقيقيَّة أو مجازيَّة، وهي هنا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ظرفيَّة مجازيَّة؛ إمّا فيها أو في مدخولها ﴿شَأْنٍ﴾[3].وقد جاءتْ لتفيد معنى شدَّة التلبُّس[4] والمصاحبة والملازمة، أي: إنَّ النبيَّ ﷺ كان متلبِّسًا متمسِّكًا بما يدعو إليه من عبادة الله والإيمان بكتابه، وغير ذلك من جميع شؤونه وأحواله في مجال الدعوة والرسالة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالشَّأن في: ﴿شَأْنٍ﴾:

شأنُه ﷺ شأنُ الأمَّةِ كلِّها

عبَّر البيانُ القرآني في خطابه لرسول الله ﷺ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ بالشأن وهو الأمر العظيم أو ذو البال؛ ليدلَّ على أنَّ جميع

(1) لكونها في حقِّ الله تعالى، الراغب، المفردات، ص: 730.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(3) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 9/506.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.

أموره وأعماله ﷺ كانتْ عظيمة حتى العادات منها؛ لأنَّه كان قدوةً صالحة فيها[1]، وأنَّه يترتَّب عليها أفعالٌ جسيمةٌ في حياة الأمَّة، فهي رسالةٌ للمؤمنين بأنَّ شأنَ النَّبيِّ ﷺ هو شأنٌ لكم في قابلِ الأيّام.

غرض تنكيرِ ﴿شَأۡنٍ﴾:

كلمة ﴿شَأۡنٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ﴾ جاءتْ نكرة في سياق النفي، فأفادت عمومَ شؤونِ النَّبيِّ ﷺ العامَّة والخاصَّة، وجميع أعمالِه ﷺ حتى العادات منها.

شأنُ النَّبيِّ ﷺ خَيرٌ عظيمٌ ونفعٌ عميم

وأفاد التَّنكير كذلك التَّعظيم، أيْ: كلُّ شأنِ النبيِّ ﷺ مهما كان صغيرًا، فهو عظيم عند الله؛ لأنَّه لَمّا كان الله مشاهِدًا شؤونَ النَّبيِّ ﷺ كلَّها، وعطف عليه أعظم شأنه وحاله، وهو تلاوة القرآن الكريم؛ دلَّ على أنَّ أيَّ شأنٍ للنَّبي ﷺ هو عظيم عند الله تعالى[2].

فائدةُ عطفِ ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾:

كلمة ﴿شَأۡنٍ﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ لفظٌ عامٌ، فيشمل كلَّ شؤونِ النبيِّ ﷺ الدينيَّة والدنيويَّة، فيكون داخلًا فيها تلاوة النَّبيِّ ﷺ للقرآن الكريم، لكن خُصَّ بالذكرِ دونَ سائرِ الأعمالِ، من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ، كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]؛

عطفُ خصوص التِّلاوة على عمومِ الشَّأنِ لمزيَّة ذلك الخاصِّ

وذلك لأمرين:

الأول: مكانةُ القرآن وأهمّيَّة تلاوته، والمعنى: "وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآنٍ أنزل عليك تعبُّدًا به، أو تبليغًا له"[3].

الثاني: الإيماءُ إلى وجوبِ زيادة الاهتمام والعناية به[4].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/136، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/30، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.

سرُّ التَّعبيرِ بالتِّلاوةِ في: ﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾:

تـلاوةُ القـرآنِ قـراءةٌ وعـلـمٌ وحـفـظٌ وعـملٌ ودعوةٌ

اختارَ البيانُ القرآنيُّ التعبير بلفظة التلاوة دون القراءة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾؛ لكون التلاوة أنسبَ مع ذكر القرآن؛ ولكثرةِ الفوائدِ التي يتضمَّنها لفظ التلاوة[1]، فالتِّلاوةُ أوسع دلالةً من القراءة، ويتَّضح ذلك في معاني التلاوة، وهي:

الأوَّل: الاتباعُ والامتثالُ لِما في القرآن الكريم من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ؛ لأنَّ من اتَّبع غيرَه يقال: تلاه فعلًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشمس: 2][2]، كما أنَّ من قَوَّمَ لفظَه، ولم يتَّبعْهُ في العِلمِ والعملِ ليسَ بتالٍ، وإنْ قرعَ دماغَه، ومنْ تَبِعَهُ في العلمِ والعملِ؛ تالٍ، وإنْ لم يتلفظْ به[3].

الثاني: التتابع، فالتلاوة هي القراءة المتتابعة[4]، ممّا يؤدي إلى أنْ يُقيموا ألفاظَه من غير تحريفٍ ولا لحنٍ، ويتدبَّروا معانيه.

فلو عبَّر بالقراءة لَما شملت التتابع والاتِّباع الذي هو أصل التلاوة، فالتلاوةُ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءة المتتابعة، مع المتابعة بالعلم والعمل، ولهذا تختصُّ التلاوة باتِّباع كتبِ الله المنزَّلة تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لِما فيه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ[5].

الثالث: أنَّ (تلا) لا تستعمل إلّا للقراءة من مكتوب بصوتٍ[6]، وفي هذا إلماحٌ إلى تبليغ النَّبيِّ ﷺ للقرآن وقراءته على أصحابه، وليس مجرَّد قراءته لنفسه ﷺ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/30، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/593.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/30.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 1/268.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27.
(5) الراغب، المفردات، ص: 167.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تلو).

تعيينُ مرجعِ الضَّمير ﴿مِنْهُ﴾:

إضْـمـارُ القـرآن قبلَ ذكرِه إشارةٌ إلى عظيمِ شأنِه

اختلفَ المفسِّرون في الضمير: ﴿مِنْهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ إلى ماذا يعود؟ وذكروا فيه ثلاثةَ أوجه:

الأوَّل: راجعٌ إلى القرآن الكريم؛ لدلالة ما بعده عليه، والتقدير: "وما تتلو من القرآن قرآنًا"(1)، ذلك أنَّ اسمَ القرآنِ يطلَقُ على مجموعِه كلِّه، كذلكَ يُطلَقُ على كلِّ جزءٍ من أجزاءِ القرآنِ، وأشار البقاعي إلى ما يُرجِّح ذلك بقوله: "أي: من القرآن المحدَّث عنه في جميع هذه السورة، الذي تقدَّم أنَّهم كذَّبوا به من غير شبهة لهم"(2) وعلى هذا الوجه فالضَّمير يعودُ إلى مذكورٍ متراخٍ عنه، ونكتةُ ذلك؛ "تحصيل التشويق إليه حتى يتمكَّن في نفس السامع"(3)، وللدَّلالة على عظمةِ هذا القرآنِ، وعادة العرب إذا أضمرت، ثم أظهرت؛ فإنَّما تقصد من ذلك التعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: 14](4).

الثاني: راجعٌ إلى الشأنِ؛ "على تقديرِ حَذْفِ مضافٍ تقديرُه: وما تتلو من أجل الشأن، أي: يحدث لك شأنٌ، فتتلو القرآنَ من أجله"(5).

الثالث: راجعٌ إلى الاسم الجليل (اللّه)، ويكون التقدير: وما تتلو من قرآن من اللّه، أي: نازل من عند اللّه(6)، قال ابن جزيٍّ: "والأحسن أنْ يعود على اللّه تعالى لتقدُّم ذكره قبلُ"(7).

معنى: (مِن):

تـوجـيـه معنى (مـــن) يُـظـهـرُ إيجازَ القرآنِ في اللَّفظِ وثراءَه في المعنى

في معنى (مِن) الأولى ﴿مِنْهُ﴾ والثانية: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أوجهٌ عِدَّةٌ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/150.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/518.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/228.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/272، وحاشية الطيبي على الكشاف: 7/516، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/482.

فعلى الاحتمال الأوَّل بأنَّ الهاء تعودُ على القرآنِ، فالأولى: ابتدائيَّة، والثانية: للتبعيض، والتقدير: وما تتلو ابتداءً من القرآن بعضَه، أو أن تكون الأولى تبعيضيَّة والثّانية بيانيَّة، والمعنى: وما تتلو من القرآنِ قرآنًا.

وعلى الاحتمال الثاني: بأنَّ الهاء تعود على الشأن، فالأولى ﴿مِنْهُ﴾ ابتدائيَّة، والثّانية للتبعيض[1]، أي: وما تتلو من أجل الشأن شيئًا من القرآن، أو لتأكيد النفي واستغراقه، وتكون كلمة ﴿قُرْءَانٍ﴾ بعدها مفعولًا به مصرَّحًا به، أي: وما تتلو من أجل الشَّأن قرآنًا.

وعلى الاحتمال الثالث بأنَّ الهاء تعود على الله تعالى، فالأولى: ابتدائيَّة، والثانية: لتأكيد النفي، والتقدير: وما تتلو من عند الله قرآنًا[2].

وقد جعل القونوي ﴿مِن﴾ الثانية ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ اسمًا بمعنى (بعض)، لا حرفَ جرٍّ، وبيَّن أنَّه يمكن كذلك أنْ تأتي حرف جر؛ فيكون المفعول محذوفًا، وليس مُصرَّحًا به، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[3].

ممّا سبق يتبيَّن أنَّ حرفَ الجر ﴿مِن﴾ الأولى والثانية يحمل معاني كثيرة من البيان والتبعيض والتأكيد، وابتداء الغاية، وهي سمة إعجازيَّة في القرآن، وهي إيجازٌ في اللفظ وثراءٌ في المعنى، وهذه الكثرة من الاحتمالات تتعانق معانيها، ولاتتعاند، وكلُّها مرادةٌ، ولو أراد القرآن أن يحسم المعنى المراد؛ لأتى بنظمٍ صريحٍ لا يقبل هذه المعاني كلَّها، والأقرب لدائرة القبول تصحيح الجميع بنوع تأويل، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يتلو عند ابتدائه من القرآنِ بعضه، ويقرأ من القرآن لأجل شؤونه، ويقرأ القرآن النّازل من عند الله تعالى بعضه، فلا مانع من اجتماع هذه المعاني بنوعِ تأويلٍ من غير اعتسافٍ أو ارتجاف.

غرضُ تنكيرِ ﴿قُرْءَانٍ﴾:

في تنكير لفظة ﴿قُرْءَانٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ غرضان:

أولًا: التفخيم، أي: قرآنٌ عظيمٌ، لا يُحَدُّ حَدُّهُ، ولا يُقدَّر قدرُه، ولا يكتنه كُنهه، ولا تنقضي عجائبه الكثيرة.

(1) الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن: 2/143.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/117، والآلوسي، روح المعاني: 6/135.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/507.

ثانياً: العموم، لكون لفظة ﴿قُرْءَانٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فسواء كانتِ التلاوة لكلِّ القرآن أو لسورةٍ أو آيةٍ أو بعضِ آية منه، فإنَّها داخلةٌ تحتَ هذا العمومِ، "أي: لقليلٍ أو كثيرٍ"[1] وجاءتْ ﴿مِن﴾ قبل ﴿قُرْءَانٍ﴾ لتؤكِّد هذا العموم وترسِّخه[2].

القرآنُ عظيمٌ خيرُه في كلِّ حرفٍ وكلمةٍ وجملة

بلاغةُ الالتفات:

انتقلَ البيانُ الإلهي من خطابِ المفرد: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ إلى خطاب الجميع: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾، وذلك لأمور:

الرَّسول أصلُ الأمَّة في أعمالِها ومعيارُ الأخلاقِ في إعمالها

الأوّل: الإشارة إلى أنَّ الإحاطة التامَّة الإلهيَّة ليست خاصَّةً بشأن النبيِّ ﷺ فحسب، وإنَّما تشمل كلَّ الناس، وكلَّ ما يعملونه، فهي واقعة على الأعمال شهادةً وعلمًا على أتمٍّ ما يكون من كلِّ جهة من غير أنْ يستثني منه نبيًّا ولا مؤمنًا ولا مشركًا، أو يغفل عن عملٍ من الأعمال، فلا يتوهَّمنَّ أحدٌ أنَّ الله يخفى عليه شيء من أمره، فلا يحاسبه عليه يوم القيامة، وليكنْ هذا هو ظنُّه بربِّه يوم القيامة، وليأخذ حذره، وفي هذا إنذارٌ للكافرين وتبشيرٌ للمؤمنين[3].

الثاني: مراعاة ما يليق بكلٍّ من المقامين؛ إذ قصدُ التفخيم والإجلال والتكريم والتعظيم لمقام النبيِّ ﷺ الشريف بتعميم الخطاب إثر تخصيصه بمقتضى الكل؛ ليشمل الجميع بالخطاب، وأوَّلهم رسول الله ﷺ[4].

الثالث: التفنُّن في الفصاحة، والتنويع في الكلام بإخراجه على أساليب عدَّة بما يَلفتُ الانتباه ويشوِّق النَّفس للاستماع؛ إذ بدأ الكلامُ بشؤون النبيِّ ﷺ التي منها ما هو من خواصِّه كقيام الليل،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/150.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/150، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3600.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.

ثمَّ بما هو من شؤونه بالنِّسبة إلى النّاس، وهو تلاوة القرآن على النّاس، ثم ثلَّث بما هو من شؤون الأمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾[1].

الرابع: الانتقال بالسامعين للقرآن، والمبلِّغ إليهم هذا المنهج إلى العمل الجماعي التكليفي نيَّةً وقولًا وفعلًا ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ الذي يكون بنشاطٍ وشوقٍ ولهفةٍ وحسنِ استقبال، وإخلاصِ أداء ﴿تُفِيضُونَ﴾ ومراقبةٍ لمنْ لا تخفى عنه خافية[2].

الخامس: الدِّلالة على أنَّ الأمَّة داخلة مع النَّبيِّ ﷺ فيما خوطب به قبلُ[3]، أو جُمعَ تعظيمًا للنَّبيِّ[4] ﷺ، وهذا على رأي من يرى أنَّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾ للنبيِّ ﷺ.

سرُّ المغايرة في حرف النفي ﴿وَلَا﴾، و ﴿وَمَا﴾:

عـلـمُ الـلـه يستوعبُ الأزمنةَ كلَّها بماضيها وحـاضـرهـا ومستقبلها

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ تكرَّر النَّفي من بداية الآية إلى قوله تعالى: ﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ ثلاث مرات، جاء مرتين بحرف ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ وعدلَ في المرَّة الثالثة ليعبِّر بـ ﴿وَلَا﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ ولم يقل: (وما تعملون)، ويكمن سرُّ ذلك في أنَّ النّاظر في معاني هذه الأحرف يرى أنَّ ﴿وَمَا﴾ تخلِّص المضارع للحال، وأنَّ ﴿وَلَا﴾ تخلِّص المضارع للمستقبل، فأراد البيان الكريم استحضار الحال العظيم من شأن النَّبيِّ ﷺ ومن قراءته للقرآن، ثم أراد أن يبيِّن استمرارَ حالِ عملِ الأمَّة في المستقبل على ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ ليشمل الأزمنة كلَّها، واجتمعتْ معها قرينة العموم في الأفعال الثلاثة بواسطة النكرات الثلاث المتعلِّقة بتلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.
(3) الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه: 4/257.
(4) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: 250.

الأفعال، والواقعة في سياق النفي، ليُعلم أنَّ ما يحصل في الحال، وما يحصل في المستقبل من تلك الأفعال سواء، وهذا من بديع الإيجاز والإعجاز[1].

دلالة التَّعبير بصيغةِ المضارعِ في: ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

أعمالُ العبادِ المستمرَّة في مراقبةٍ مستمرَّةٍ

عبَّر البيان القرآني بصيغة المضارع ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾؛ لبيانِ أنَّ أعمالَ المخاطَبين هي على الدَّوام في مراقبةٍ؛ لأنَّ شهادة الله تعالى على خلقه لا تنقطعُ، ولا تغيبُ، فهو معهم في جميعِ أعمالِهم يحصيها عليهم، فأعمالهم المستمرَّة في مراقبةٍ مستمرة.

دلالةُ ﴿مِن﴾:

العبدُ الفطنُ فطنٌ لأعماله لعلِمه بالمراقبةِ ومن بعدها المحاسبة

حرف الجر ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ لتأكيد الإغراق في النفي[2]؛ ليعمَّ العمل كلَّه صغيرَه وكبيرَه، شريفَه وحقيرَه، أي: ولا تعملون عملًا مَهما قلَّ إلّا كنّا شهودًا عليكم، فدلَّ هذا الحرفُ على ضرورةِ اليَقَظة لجميعِ الأعمالِ، وأنَّه لا يليق بالعبدِ الفطنِ التَّهاون في أعمالِه مَهْما دقَّت أو صغرت.

غرضُ تنكير: ﴿عَمَلٍ﴾:

مهما قلَّت الأعمالُ فإنَّ الله مطَّلعٌ عليها ومجازٍ بها

نكَّر البيان الإلهي مفردة ﴿عَمَلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾؛ لإفادة العموم، لكونها جاءتْ نكرةً في سياق النفي، فشملتْ كلَّ الأعمالِ أدَقِّها وأحقرِها، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8][3]، وسواء كان العملُ قولًا أو فعلًا أو نيَّة، خيرًا أم شرًّا، نافعًا أو ضارًّا، ظاهرًا أو باطنًا؛ لأنَّ العمل يشمل مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان، فإذا كان العمل باللِّسان صار قولًا، وإذا

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 11/212 - 213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/459.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.

كان من الجوارح؛ صار فعلًا، فاختيارُ كلمة عمل، ومجيئها نكرة، أفاد العمومَ، وأنَّ كلَّ ما يصدر من الإنسان بعلم الله ومشاهدته، ومما زاد قطعيَّة العموم التي لا تحتمل تخصيصًا ولا استثناءً مجيءُ حرف ﴿مِن﴾ قبل كلمة ﴿عَمَلٍ﴾[1]؛ لأنَّ العلماء لَمّا قالوا: إنَّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ ليس على الإطلاق، فقد يأتي ما يخصِّصها، لهذا قالوا: ما من عامٍّ إلّا وقد خصَّ بعض أفراده، ورأي جمهور علماء الأصول: أنَّ دلالة العام المطلق دلالةٌ ظنيَّة، فمجيء حرف ﴿مِن﴾ نفى احتمال التخصيص، فصارت دلالته قطعيَّة[2].

بلاغةُ الاستثناءِ في: ﴿إِلَّا﴾:

لا يكون حالٌ من أحـوال الخلقِ إلا والله مطَّلعٌ عليه حافظٌ له

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ استثناءٌ مفرَّغ من عموم أحوالِ المخاطَبين بالأفعال الثلاثة: (عموم الشأن، عموم التلاوة، عموم العمل)، أي: ما تلابسون بشيء منها في حال من الأحوال إلّا حالَ كوننا رقباءَ مطَّلعين عليه حافظين له[3]؛ إذ جملة ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ في موضع الحال، ووجود حرف الاستثناء أغنى عن اتِّصال جملة الحال بالحرف (قد)؛ لأنَّ الربط ظاهرٌ بحرف الاستثناء ﴿إِلَّا﴾، وقد تقدَّمها قبلُ فعلٌ، وهذا جائز[4].

دلالةُ استعمالِ الكون الماضي المضافِ في: ﴿كُنَّا﴾:

علمُ الله أزليٌّ وشـهـودُه على خلقه مستمرٌّ لا ينقطع

آثرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ فعل ﴿كُنَّا﴾ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾؛ للدَّلالة على تأكيد مراقبة الله، وأزليَّة علمه ﷻ؛ لأنَّ فعل الكون في حقِّ الله يدلُّ على الأزليَّة، ومجيئه ماضيًا رغم أنَّ الأفعال التي سبقته جاءتْ كلُّها بصيغة المضارع ﴿وَمَا تَكُونُ﴾...

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(2) رشيد رضا، المنار: 11/339، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/136، والسمين الحلبي، الدر المصون: 6/229.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/213، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3601.

﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾... ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ يفيد تحقُّق الوقوع، ولأنَّ باستعماله أصبحتِ الجملة اسميَّة تفيد توكيد إحاطة علمه ومراقبته لخلقه بما تدلُّ عليه الجملة الاسميَّة من الاستمرار والثبوت.

بلاغة طريق الاحتباك:

تقديرُ الاحتباكِ في الصيغِ كتقديرِه في الجمل

يَرِدُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ احتباكٌ بديع يظهر من خلال الجمع بين صيغة الماضي في الفعل الواقع في موضع الحال ﴿إِلَّا كُنَّا﴾، وصيغ المضارع في الأفعال ﴿تَكُونُ﴾، و﴿تَتْلُواْ﴾، و﴿تَعْمَلُونَ﴾ ليُفيدَ التَّنبيهَ على أنَّ ما حصل، ويحصل، وسيحصل سواء في علم اللّه تعالى على طريقة الاحتباك، كأنَّه قيل: (وما كنتم وتكونون وهكذا، إلّا كنّا ونكون عليكم شهودًا)[1]، أي: إنَّ الاحتباك هاهنا في الصيغ، فقد ذكر في الجملة الأولى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صيغ المضارع، وذكر في الثّانية: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ صيغة الماضي، وتقدير الكلام: وما كنتم وتكونون وستكونون، إلّا كنّا ونكون وسنكون عليكم شهودًا، وتقدير المستقبل مأخوذٌ من معنى الحاليَّة في خطابِ الجميعِ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

تربيةُ العبادِ على الانتباه والحذر رحمةٌ وحكمةٌ

قدَّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على ﴿شُهُودًا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ لإفادة الاختصاص، والاهتمام بتخويف من أُريد تخويفه من المخاطَبين، وحتى يطرقَ أسماعهم، ويلفتَ انتباههم، فالكلام لكم أيُّها المخاطَبون، وجاءت كاف الخطاب ﴿عَلَيْكُمْ﴾، والتَّعبير بضمير العظمة قبلها ﴿كُنَّا﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/213.

وبكلمة الجمع ﴿شُهُودًا﴾ لتزيد ذلك التنبيه والاهتمام بما يُخاطب به، وكأنَّه يقول: عليكم شهود، وليس على غيركم، فانتبهوا، واستعدّوا، وراقبوا أعمالكم[1].

نكتةُ استعمالِ جمعِ فعول: ﴿شُهُودًا﴾:

للمبالغةِ شأنٌ في إيراد المعاني على النُّفوس والحقائق على القلوب

آثر البيان القرآني استعمال لفظة ﴿شُهُودًا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ دون (شاهدين) مع أنَّ كليهما جمعٌ لاسم الفاعل (شاهد)، إلا أنَّ لفظ (شهود) هو مصدرٌ سماعي على وزن (فُعول) للفعل (شَهِدَ)، وكلُّ مصدر على وزن (فُعول) يجوز أنْ يُجعل جمعًا لفاعل[2]، وبهذا فإنَّ لفظ (شهود) جمع بين المصدريَّة وبين اسم الفاعل، ممّا أعطى للمعنى المزيدَ من المبالغة والثبوت والدوام للشهادة التي تعني المراقبة والإحصاء والتتبُّع والاستقراء؛ إذ المصدر يفيد المبالغة، واسم الفاعل يفيد الثبوت والدوام، وهذا المعنى لا يؤدّيه لفظ (شاهدين) فيما لو عُبِّر به، وإضافة إلى ذلك فقد أفادت صيغة ﴿شُهُودًا﴾ المبالغة في الإخبار عن كثرة الشهود، فإنَّ لله شهودًا على أعمال النّاس من الملائكة، والله من ورائهم محيطٌ، والإخبار عن تعدُّد الشهادة بعدد حوادثها، فالله تعالى يعلم علم المشاهدة والمعاينة لكلِّ واقعة، وكأنَّه شاهد عليها، وبتعدُّد الحوادث يتعدَّد العلم بالمشاهدة، وكأنَّ علمَه سبحانه - وله المثل الأعلى - علمُ شهود[3].

معنى ﴿إِذْ﴾:

ظرفٌ دخلَ على المضارع فاستوعبَ الزمن السّابق كلَّه

لَمّا كان المراد بالأفعال السابقة ﴿تَكُونُ﴾ و﴿تَتْلُواْ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾ الحالةَ المستمرَّة الدّائمةَ المقارنة للزمان الماضي، ناسب أنْ تأتي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/136.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/131، وابن يعيش، شرح المفصل: 3/299.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3601.

﴿إِذْ﴾ وهي ظرف للوقت الماضي من الزمان، وتُخلِّص المضارع لمعنى الماضي، كأنَّه قال: إذ أفضتم في تلك الأعمال، وللسبب نفسه أوثر في الاستثناء صيغةُ الماضي ﴿كُنَّا﴾[1]، والتقدير: وما كنت في شأنٍ، وما تلوتَ من قرآن، ولا عملتم من عملٍ إلّا كنّا عليكم شهودًا؛ إذ أفضتم فيه[2] وإنَّما عبَّر بالمضارع استحضارًا للحالة الماضية.

براعةُ استعمالِ ﴿تُفِيضُونَ﴾ مع حرفِ الظَّرفيّة: ﴿إِذْ﴾:

الأعمال المستوعبةُ لعنايةِ الإنسان أرضٌ خصبةٌ للغفلةِ عن الرَّقابة

أصلُ الإفاضة الاندفاعُ في العمل بكثرة وبقوة واهتمام[3]، والإفاضة في العمل أخصُّ من إتيانه مطلقًا، و(في) الظرفية تفيد معنى التغلغل في العمل الذي يفيضون فيه، والتمكُّن منه، وتتمثَّل حكمةُ تخصيصِ الإفاضة بالذِّكرِ دونَ اللفظِ الأعمِّ منها، وتعديتها بحرف الظرف (في) بالأمورِ الآتية:

الأول: أنَّ ﴿تُفِيضُونَ﴾ تتَّسع دلالتها لمعانٍ لغوية تناسب السياق، وتعطي غزارة في المعنى المراد، وهي: "تخوضون، أو تنشرون، أو تدفعون، أو تنهضون، أو تأخذون، أو تنقلون، أو تتكلمون، أو تسعون، أقوال متقاربة"[4]، وتنوُّع هذه المعاني تعطي صورًا متعدِّدة لحالة العمل الذي يعملونه.

الثّاني: أنَّه ينبغي أنْ يُقبِلَ المؤمن على العمل التكليفي باهتمام وسرعة ونشاطٍ وحيويةٍ وشوقٍ ولهفةٍ وحُسْنِ استقبالٍ وإخلاصِ أداءٍ بما يدلُّ على حُسْن الاستجابة للمنهج فور العلم به، كما يفيض ماء الإناء؛ إذا امتلأ لينزل، ومثله قولُ الحق سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ [البقرة: 198]، أي: شَرَعْتُم في الذَّهاب مسرعين؛ لأنَّكم أدَّيتم نُسُكًا أخذتم منه طاقة، وتُقبِلون بها على نُسُك ثانٍ[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والسمين الحلبي، الدر المصون: 6/229.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/213.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79.
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.

الثّالث: أنَّ ما يفيض فيه الإنسان من عمل مهتمًّا به مندفعًا فيه، متقنًا له، جديرٌ بألّا يَنسى أو يَغفل عن مراقبة ربِّه فيه[1].

فتحصَّل من استعمال هذا الفعل أنَّ الإنسانَ إذا عمل عملًا، وأفاض فيه بسعةٍ وعنايةٍ واهتمامٍ، فأصبح غارقًا فيه، متلاشيةً جوارحه عن كلِّ شيءٍ إلا عن هذا العمل، كان عليه أن يتيقَّظ وأن ينتبه وأن يحذر؛ فإنَّ رقابةَ اللّه فوق كلِّ رقابة، وشهادته فوق كلِّ شهادة.

معنى الواو ودلالتها:

إيـــرادُ الأدلَّـــةِ بعـد الـدَّعـاوى أمكنُ في تثبيتِها وأرسخُ في بقائِها

تحمل الواو في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أحدَ المعنيين الآتيين:

الأوَّل: أنَّها حرف عطف، وقد عُطفت هذه الجملةُ على جملة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾، وأفاد هذا العطفُ تعميم تعلُّق علم اللّه تعالى بجميع الموجودات بعد أن بيَّنت الآية تعلُّقَ علم اللّه بعمل النَّبي ﷺ وشأنه، وعمل النّاس وأحوالهم، فكانت الجملة بمنزلة تذييلٍ لِما سبق[2].

الثّاني: أنَّ الواو استئنافيَّة[3]، ويكون الكلام قد انتهى عند قوله تعالى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، ثم استأنف الحديث عن علم اللّه تعالى وأنَّ علمه بكلِّ صغير وكبير في الأرض، أو في السماء محفوظ ومحصًى في كتاب مبين، ولا يغيب عنه شيء.

فدلالةُ هذه الجملة - سواء بجعل الواو للعطف أو الاستئنافِ - محمولةٌ على إيرادِ الدَّليل بعد الدَّعوى؛ فإنَّ اللّه يراقب أعمالَ العبادِ، ودليلُ ذلك أنَّه لا يبعدُ عنه شيءٌ من أحوالهم.

انـتـقـاءُ ألـفـاظِ القرآنِ قائمٌ على خـصـوصـيـتـهـا الـمـعـجـمـيَّـة وارتـبـاطـهـا السّياقي

سرُّ التَّعبير بـ ﴿يَعْزُبُ﴾، دون مرادفاتها:

فلم يقل سبحانه: (وما يبعد أو يغيب أو يخفى أو يفوت)؛ لأمور:

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339، المراغي، تفسير المراغي: 11/128.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214.
(3) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/302.

الأوّل: أنَّها أوسعُ دلالةً؛ فهي تتضمَّنُ معنى باقي مرادفاتها من البعد والغياب والخفاء والفوات[1].

الآخر: مراعاةً للسياق؛ فـ"نفي عزوب الشيء عن الربِّ تعالى أخصُّ وأبلغُ من نفي الغيبة أو الخفاء عنه"[2]؛ إذ الفعل هنا ﴿يَعۡزُبُ﴾ قد نُسب إلى الله ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ الذي لا يغيب عنه، ولا يبعد، ويخفى عليه، ولا يفوته شيء ﷻ، فالَّذي يغيب عنّا، ولا نشاهده هو في مشاهدة الله سبحانه[3]، كما في قوله تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: 59]، كذلك المصدر ﴿شُهُودًا﴾ أفاد المبالغة في شمول علمه ورقابته ورعايته، وكذلك قوله: ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ الذي جاء تأكيدًا لذلك، وبيانًا لإحاطة علمه بكل شيءٍ، فلا يعزب عنه سبحانه "لا أصغرَ من الذرة ممّا لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه، ولا أكبر من ذلك، وإن عظم مقداره كعرشه تعالى إلّا وهو معلوم له، ومحصًى عنده في كتابٍ عظيم الشأن"[4].

نكتةُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة: ﴿رَّبِّكَ﴾:

شـهـودُ الـربِّ وعلـمه المحيط بعباده هو رحمةٌ ولـطـفٌ وعـدلٌ وعطاء

اختيار البيانِ القرآني التعبير بلفظ الربوبيَّة ﴿رَّبِّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ لفتةٌ مهمَّة وتعبيرٌ بليغ؛ إذْ إنَّ الربوبيَّة فيها معنى الرَّحمة والتَّربية "والإشعار باللطف ما لا يخفى"[5]، وفيها معنى الإحسان والعطاء، فالله المربي لكلِّ مخلوق بعامِّ أفضاله وللنَّبي ﷺ بخاصِّ نعمه وأشرف نواله[6]، ومن منطلق الربوبيَّة، فإنَّ علمه سبحانه ورقابته سببُ رحمة ولطف وعدل في الدنيا والآخرة؛

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 11/128.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 11/128.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/136.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/151، والطّيبي، حاشيته على الكشاف: 14/198.

إذ لا يُظلم في ملكوته أحد، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8] وفي هذا تطمينٌ بأنَّ "كلَّ خاطرة من خواطر الإنسان إنَّما يشهدها الله، ويعلمها، وهو المجازي عليها"[1]. كذلك فإنَّ الربَّ منْ يتولَّى تربية الشيء إلى ما يعطيه مناطُ الكمال، ولا يقتصر ذلك على الدُّنيا فقط، ولكنَّه ينطبق على الدُّنيا والآخرة[2].

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿رَّبِّكَ﴾:

تشريفُ النبيِّ ﷺ وتعظيمُه تشريفٌ لأمَّته

نسبَ البيان القرآني الرُّبوبية إلى كاف خطاب النبي ﷺ، فقال: ﴿عَن رَّبِّكَ﴾، ولم يقل: (عَنْ ربِّهم)؛ للأمور الآتية:

الأوَّل: عودةٌ بالخطاب إلى النَّبي ﷺ كما بدأ في أول الآية، تنبيهًا على ما يريده بالنَّبي ﷺ من التشريف والتعظيم والإكرام والشأن العظيم، فناسب ذكر الربوبيَّة مضافًا إلى أحبِّ خلقه إليه، وهنا المقام مقام إيراد أمر يناسب العظمة[3]، وكأنَّ النَّبيَّ هو سبب الرحمة واللطف بهم.

الثّاني: إظهار اللطف به ﷺ والشَّفقة عليه، وخاصَّة أنَّ الآيات الَّتي قبلُ تتحدَّث عن المفترين والمكذِّبين لدعوته ﷺ[4].

الثّالث: بيان أنَّ الله هو المربّي لكلِّ مخلوق بعامِّ أفضاله، وللنَّبيِّ ﷺ بخاصِّ نعمه وأشرف نواله[5]، وبهذا فإنَّ المربَّى يبلغ القمَّة في التربية إنْ كان مَنْ ربّاه عظيمًا[6].

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6018.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 13/7759.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والآلوسي، روح المعاني: 1/230.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/176، والآلوسي، روح المعاني: 6/136.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 3/460.
(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 17/10643.

دلالةُ استعمال ﴿مِن﴾:

كـلُّ شيءٍ مهما كـانَ صـغـيرًا؛ فهو في علمِ الله ومشاهدته

الأصل أنَّ ﴿مِّثْقَالِ﴾ فاعل لـ ﴿يَعْزُبُ﴾، وجاءت ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ قبل الفاعل؛ لتأكيدِ الإغراقِ في النَّفي[1]، وتأكيد العموم، فالنَّكرة في سياق النفي تفيد العموم، ودخول ﴿مِن﴾ عليها يزيدها في التَّعميم، ويمنعها من التَّخصيص، ورأي جمهور علماء الأصول: أنَّ دلالة العام المطلق دلالة ظنيَّة، ومجيء حرف ﴿مِن﴾ نفى احتمال التخصيص، فصارت دلالته قطعية[2]، والمعنى: وما يعزُب عن علم ربِّك مثقالُ ذرَّة.

بلاغةُ استعمالِ المثقال لوزنِ الذَّرة في: ﴿مِّثْقَالِ﴾:

كنايةٌ عن إحاطةِ علم الله تعالى بكلِّ شيء

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، والمعنى: وزن ذرَّة، وأصلُ المثقال من الثِّقَل الذي هو ضدُّ الخفَّة، والشيء الثقيل: ضدُّ الخفيف، وأتى به على وزن مِفْعال، فهو اسم للآلة التي يُعرف بها مقدار ثقل الشيء، وبالمقابل جاء بلفظ ﴿ذَرَّةٍ﴾ التي لا وزن لها، والأصل فيها ألا توزن[3]، ولا تكاد تُرى بالعين المجرَّدة، والتي يُضرب بها المثل في الخفَّة وعدم الوزن وعدم القيمة؛ إذ يُطلق الذَّرُّ إمّا على صغار النَّمل؛ إذ هي أحقر وأصغر ما نشاهده، أو على الدقيقة من الهباء، وهو الغبار الذي لا يرُى إلا في ضوء الشمس، وجعل لها وزنًا وثقلًا وقدرًا، وتوزن بمثقال، وفي هذا مبالغة أيَّما مبالغة، ليدلَّ على عِظم إحاطة علم الله سبحانه إذ لا يغيب عنه أدقُّ الأعمال وأصغرها وأحقرها، ولا يضيع عنده أجر أي عملٍ مهما كان صغيرًا، حتى وإن لم يُرَ، كالنيَّة الخفيَّة مثلًا، يقول ابن عاشور: "المبالغةُ في الصغر والدِّقة للكناية

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/460.
(2) رشيد رضا، المنار: 11/339، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذرر).

بذلك عن إحاطة العلم بكل شيء، فإنَّ ما هو أعظم من الذرَّة يكون أولى بالحكم"[1].

فائدة التقييد بلفظ الأرض والسماء:

تقريبُ المعاني للعقولِ أدعى لفهم معانيها وإشاراتها

قيَّد البيانُ الإلهيُّ عدمَ عزوب علمه سبحانه بالسماء والأرض: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾مع أنَّه سبحانه لا يغيب عنه شيءٌ، لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما، ولكنَّه قيَّده في الأرض والسماء؛ تقريبًا لعقول العامَّة؛ لأنَّ النّاس لا يشاهدون سواهما، وسوى ما فيهما من المخلوقات[2].

توجيه المتشابه اللفظي بين آيتي سورة يونس وسبأ:

من بلاغةِ البيانِ القرآني تقديمُ الأنسبِ للغرضِ الذي فيه الكلام

قدَّم البيان القرآني الأرضَ على السَّماء في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ومقتضى الظّاهر وعموم الاستعمال تقديمُ السَّماء على الأرض؛ إذ هي أعظمُ وأعلى معنًى وحسًّا؛ إلا أنَّه هنا قدَّم الأرضَ مناسبةً للسياق؛ لأنَّ الحديث عن أهل الأرض وشهادته سبحانه على شؤونهم وأحوالهم وأعمالهم، أي: فيها تعلُّقٌ بالغرض الذي فيه الكلام، وذلك أنَّه قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ وهو أعمال الناس، فإنَّهم من أهل الأرض[3]، وكذا لمّا كان المثقال في موزون أهل الأرض؛ كان تقديمها أولى[4].

وللسَّببِ ذاته وهو مناسبة المتقدِّم لسياق الكلام؛ قدَّم سبحانه السَّماء على الأرض في سورة سبأ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/82.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/355، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339، ومثله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: 38].

(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/151.

تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 3]؛ فإنَّه لمّا كان السِّياق حديثًا عن السّاعة، وعلم السّاعة في السماءِ؛ لاءَمَ ذلك أنْ قُدِّمت السَّماء على الأرض[1]، ولأنَّها في سياق ثنائه تعالى على نفسه، ووصفه بإحاطة علمه، فناسبَ تقديم السماء؛ لأنَّها أعظم[2].

فائدةُ ذكر حرفِ النَّفي والظَّرفيَّة: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

ما لا يتصوَّرُه الإنسانُ يحتاجُ إلى مزيدِ بيانٍ وتوكيد

أطنبَ البيان القرآني بذكر حرفِ النَّفي والظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ولم يكتفِ بالمتقدِّم، أي: لم يقل: (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض والسماء)؛ زيادةً في تأكيدِ عدم عزوب أيِّ شيءٍ عن علم اللّه في السماء كما في الأرض، فإنَّ المخاطَبين قد يستبعدون تصوُّر السَّماء على الحقيقةِ؛ فجاء ذكرُها بهذا النَّفي لتأكيد إحاطةِ علمه بكلِّ شيءٍ ممّا يتصوَّره الإنسانُ، وما لا يتصوَّرُه، كما أنَّ في إعادة قراءتها وسماعها استشعارًا بعظمة علمِ اللّه ومراقبته سبحانه.

دلالةُ أفعل التَّفضيل:

الصغيرُ مهما تناهى في صغره والكبيرُ مهما تناهى في كبره فهو في علمِ الله

أتى البيان القرآني بلفظ: ﴿أَصۡغَرَ﴾ و﴿أَكۡبَرَ﴾ بصيغة أفعل التفضيل في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، ولفظ أصغر يقابله صغير، ولا يوجد أصغر إلّا إنْ وُجد صغير، وقوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ عائد على الذرَّة، إذًا: فهناك ذرَّة، وهناك أصغر من الذرَّة[3]، وقد اكتشف العلم مؤخَّرًا ما هو أصغر من الذرَّة، فمجيء أفعل التفضيل ﴿أَصۡغَرَ﴾؛ أدخل كلَّ ما يُمكن أنْ يوجد، ويكونُ أصغرَ من الذرَّة، إذ فعل التفضيل ليس له حدٌّ ولا حصر، وأمّا لفظ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/3021.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: 68]، لأنَّ الساعة تبدأ هناك.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 4/2247.

﴿أَكۡبَرَ﴾؛ فهو واضح؛ إذ يدخلُ تحته كلُّ شيء أكبر من الذرَّة مهما بلغ، وفي هذا إفادةٌ لعظمِ علمِ الله، وإحاطته بكلِّ شيء، وأنَّه لا يعزبُ عنه شيءٌ مهما صغر أو كبر.

دلالة أسلوب الطباق:

طباقٌ قادَ الذِّهنَ إلى تصوُّر الموجوداتِ كلِّها

جمع البيانُ القرآنيُّ بين لفظين متقابلين في المعنى، هما: ﴿أَصۡغَرَ﴾ و﴿أَكۡبَرَ﴾ في قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، ويُعرَفُ بالطِّباق وهو من المحسِّنات البديعيَّة؛ إذ إنَّ تقابل المعنيين ممّا يزيد الكلام حسنًا وطرافة، ويدلُّ على كمال سعةِ علم الله التي تشمل كل شيء؛ صغيرًا، مهما بلغ في صغره، وكبيرًا، مهما بلغ في كبره، وهذا الطباق ترك للخيال أنْ يتصوَّرَ تناهي صغر الأشياء وتعاظم كبرها.

سرُّ عطف لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾ على ﴿أَصۡغَرَ﴾:

تتميمُ الكلامِ وتكميلُ المعاني سمةُ الكلامِ الفصيح والنظم الصحيح

عطفَ البيانُ القرآني لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾ على ﴿أَصۡغَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ ولم يَكتفِ بالأصغر، مع أنَّ من علمَ بالأصغر لا بدَّ وأنْ يعلمَ بالأكبر، وذلك لإفادة إحاطة علمه سبحانه بجميع الأشياء، ومعلوم أنَّ من علم أدقَّ الأشياء وأخفاها؛ كان علمه متعلِّقًا بأكبر الأشياء وأظهرها، وكون الأكبر لا يكبر عليه؛ كما أنَّ الأصغر لا يعزب عنه[1]، وكما أنَّ المرادَ من الكلام بيانُ إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصرَ على الأصغر؛ لتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّه يثبتُ الصغائر؛ لكونها محلَّ النسيان، وأمّا الأكبر؛ فلا يُنسى، فلا حاجةَ إلى إثباته، فبيَّن أنَّ الإثبات في الكتاب ليس كذلك، فإنَّ الأكبرَ مكتوبٌ فيه أيضًا[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/340.
(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 23/186.

فنُّ الاكتفاء:

إذا تساوى الإثباتُ والحذفُ فالحذفُ أبلغ

في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ اكتفى البيانُ القرآني بدلالة ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، ولم يذكرها مع لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾، فلم يقل: (ولا أكبر منه، أو: ولا أكبر من ذلك)؛ لكون السياق قد دلَّ عليه، فأغنتْ ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ عن تكرار ذكرها مع لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾، وذلك كان إيجازًا واختصارًا؛ لأنَّه إذا دلَّ على المحذوف دليلٌ، ولم يَتأثَّرِ المعنى بحذْفِه؛ كان الإيجاز أبلغ، ومعنى الكلام: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر من ذلك، وهذا فنٌّ من فنون بلاغة القرآن الكريم وهو الاكتفاء، ويُسمّيه بعضهم بالاستغناءِ، وهو الحذف لوجود الدَّليل اللَّفظيِّ على المحذوف المقدَّر[1].

توجيه القراءات:

العطفُ والاستئنافُ يلتقيان في إثباتِ إحاطةِ العلم للموجودات

قرأ الجمهور قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ بفتح الراء فيهما[2]، ووُجِّه على أنَّهما عطف على ذرَّة أو على مثقال على اللفظ[3]. فهما مجروران، وجرهما بالفتحة نيابةً عن الكسرة؛ لأنَّهما ممنوعان من الصرف؛ للوصفية ووزن أفعل.

وقرأ حمزة وخلف ويعقوب: برفع الراء فيهما (ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ)[4]، ووُجِّه على أنَّهما عطفٌ على موضع مثقال؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ صلة فهو مرفوع بـ ﴿يَعۡزُبُ﴾[5]، وتكون ﴿وَلَا﴾ مقحمة لتأكيد النفي؛ قال الزمخشري: "والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء، يكون كلامًا مبتدأ"[6]. فتكون لا نافية للجنس، تعمل

(1) الحذف: إسقاط كلمةٍ للاجتزاء فيها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام. يُنظر: الجرجاني، دَرْجُ الدُّرر: 2/35.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/29.

(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/29.

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215.

عمل ليس، وأصغر: اسم (لا) مبني على الفتح، ويكون بذلك عطفَ جملةً على جملة.

نكتة تقديم الأصغر على الأكبر:

قدَّم البيان القرآني قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ على قوله: ﴿وَلَآ أَكۡبَرَ﴾؛ فقال: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، لأنَّه "لمّا ذكر تعالى أنَّه لا يغيب عن علمه أدقُّ الأشياء التي نشاهدها؛ ناسب تقديم ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، ثمَّ أتى بقوله: ﴿وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، على سبيل إحاطة علمه بجميع الأشياء، ومعلومٌ أنَّ من علم أدقَّ الأشياء وأخفاها؛ كان علمه متعلِّقًا بأكبر الأشياء وأظهرها"[1].

من كانَ علمُه محيطًا بأدقِّ الأشياء وأخفاها بدهيٌّ أنْ يعلم أكبرها وأظهرها

معنى الاستثناء في: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾:

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ منقطع بمعنى (لكن) عند جمهور المفسرين والتقدير: (لا يعزب عن ربك شيءٌ ما لكن جميع الأشياء في كتاب مبين، فكيف يعزب عنه شيء منها)؛ ذلك لأنَّ في جعْلِه استثناءً متصلًا، إشكالًا؛ لفساد معناه؛ إذ التقدير (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض، ولا في السَّماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، إلّا في كتاب، فيعزب عنه)[2].

استثناءٌ أكَّد عدم عزوب شيءٍ عن علم الله فكلُّه في كتاب تام البيان

وأجاز بعض المفسرين أن يكون متصلًا إمّا بجعل ﴿يَعۡزُبُ﴾ بمعنى: يَبِين، وينفصل، ويصدر، والمعنى: لا يصدر عنه تعالى شيء إلا وهو في كتاب مبين، أي: اللوح المحفوظ[3]. أو أن يكون من تأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه، والمعنى: لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلّا في حال كونه في كتاب مبين، أي: إلّا معلومًا مكتوبًا، ويعلم السامع أنَّ المكتوب في كتاب مبين لا يمكن أن يعزب، فيكون انتفاء عزوبه حاصلًا بطريق برهاني[4].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215، والصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين، ص: 809، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾:

علم الله محفوظ مضبوط ثابتٌ لا تغيير فيه ولا تبديل

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كناية عن علم الله المحقَّق وشموله[1] وضبطه وحفظه، وثباته واستقراره، والمعنى: أنَّ علمه سبحانه ثابت لا تغيير فيه ولا تبديل، فهو عالم بكل شيء علمًا ثابتًا كالمكتوب البيِّن المسجل في كتاب واضح، لا يخفى منه خافية[2]، وقد جعله ابن عاشور من الاستعارة؛ إذ قال: "الكتاب: علم الله، استعير له الكتاب؛ لأنَّه ثابت لا يخالف الحق بزيادة ولا نقصان"، والكناية أصحُّ وأدقُّ مسلكًا لاسيما فيما يتعلَّق بصفات الله تعالى، وقد فسَّر بعض المفسرين الكتاب في الآية باللوح المحفوظ المشتملِ على علم الله تعالى المكنونِ في الغيب، أي: لم يروا فيه كناية[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلاوة والقراءة:

التِّلاوةُ تكونُ بالتتابعِ والمتابعةِ ولا بدَّ أنْ تكونَ بصوت، والقراءةُ لا يشترطُ فيها ذلك

التلاوةُ والقراءة متقاربتان في المعنى؛ إذ كلاهما يُضاف إلى القرآن، فيقال: تلاوة القرآن، وقراءة القرآن، إلا أنَّه بالرجوع إلى المعنى اللغوي والاستعمال، يتَّضح أنَّ بينهما ملامحَ دلاليَّة فارقة:

أصل التلاوة في اللغة: التاء واللام والواو أصلٌ واحد، وهو الاتِّباع، يُقال: تلوتُه؛ إذا تبعتُه، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنَّه يتبع آية بعد آية، وتلا الشيءَ: تَبِعَه تُلُوًّا[4]، والتلاوة: اتِّباع الشيء ما يسبقه لحوقًا به من خلفه[5].

وأصلُ القراءة: القاف والراء والحرف المعتلُّ أصلٌ صحيح يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ، ومنه القرآن[6]، كأنَّه سُمّي بذلك لجمعه ما فيه

(1) دروزة، التفسير الحديث: 4/265.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2525.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2525.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).

من الأحكام والقصص وغير ذلك، وقرأتُ الشَّيءَ: جمعته، وضممتُ بعضَهُ إلى بعضٍ[1]، فقراءةُ الكلام تعني: ضمَّ حروفه إلى بعضها والتلفُّظ بها مجموعة.

وقد ذكر العلماء فروقًا عدَّة بينهما منها:

التلاوة تختصُّ باتِّباع كتبِ الله المنزَّلة تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لما فيه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يُتوهَّم فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوة قراءة، وليس كلُّ قراءة تلاوةً، فلا يُقال: تلوتُ رقعتكَ، وإنَّما يُقال في القرآن في شيء إذا قرأته؛ وجب عليك اتِّباعه[2].

التلاوةُ لا تكونُ في الكلمة الواحدة، والقراءة تكونُ فيها، تقول: قرأ فلانٌ اسمهُ، ولا تقول: تلا اسمه؛ لأنَّ أصلَ التلاوة: التتابعُ، فإذا لم تكنِ الكلمةُ تتبعُ أختها؛ لم تُستعمل فيها التلاوة، وتُستعمل فيها القراءة[3].

(قرأ) الكتاب قراءة: تتبَّع كلماتِهِ نظرًا، ونطقَ بها، وتتبَّع كلماتِهِ، ولم ينطقْ بها[4]، أي: تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ، وأمّا (تلا)؛ فهي تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ وبصوتٍ، ويُتسامح فيها، فتكون من غير مكتوبٍ لكن بصوتٍ، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوتٍ ولا بدَّ[5]، والخلاصة: أنَّ التلاوةَ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءة المتتابعة، مع المتابعة بالعلم والعمل، ولابدَّ أنْ تكونَ بصوت، أمّا القراءة؛ فلا تقتضي التَّتابع ولا المتابعة، ولا يشترط أنْ تكونَ بصوت.

العَزْبُ والبُعْد:

العَزْب: العين والزاي والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ، والعَزَبُ: الذي لا أهلَ له، يُقال: عَزَبَ حِلْمُ فلانٍ، أي: ذَهَبَ، وكلُّ شيءٍ يَفوتُك حتى لا تقدرَ عليه، فقد عَزَبَ عنك، ولا يَعْزُبُ عن الله شيءٌ[6]، وعَزَب يَعْزُبُ ويَعْزِبُ: غابَ وبَعُدَ، والعُزوبُ: الغَيْبَةُ،

(1) الجوهري، الصحاح: (قرأ).
(2) الراغب، المفردات، ص: 167.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27.
(4) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (قرأ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تلو).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).

والذهاب، والعُزّابُ: الَّذِينَ لا أَزواجَ لهم[1]، والعازِبُ: المتباعدُ في طلب الكلَأ عن أهله[2]، والعَزْب: ابتعادٌ عن المقرِّ الأصليِّ إلى مستقرٍّ بعيد دون انقطاع عنه، واستعمال العَزْب في الغياب لازمٌ للبعد[3].

العـزْبُ بعـدٌ مـلازمٌ للغيابِ أو الـذهـابِ أو الانفرادِ، والبُعدُ خلافُ القرب

والبُعْد: خلاف القرب، بَعُد الرَّجُلُ، أي: تباعد، وهو بعيد، وبَعِدَ بَعَدًا، وبَعُد: هَلَكَ أَو اغْتَرَبَ، والبُعْدُ والبَعَدُ: الهَلاكُ، والأَباعد: خِلافُ الأقارب[4]، والأَبْعَدُ: الخائن، البُعْد: الموت[5]، والبُعد والقُرب ليس لهما حدٌّ محدود، وإنَّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره، يُقال ذلك في المحسوس، وهو الأكثر، وفي المعقول، والبُعد أكثرُ ما يُقال في الهلاك[6].

نلاحظ من المعاني اللغوية للفظين: أنَّ بينهما تقاربًا دلاليًّا؛ إذ يشتركان في معنى البُعد الذي هو ضدُّ القرب، ويتميَّز البُعدُ بأنَّه يُطلقُ على الهلاك والموت والخائن، بينما يتميَّز العَزْبُ بأنَّه بُعدٌ ملازمٌ لمعنى الغيابِ أو الذهابِ أو الانفرادِ.

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزب).
(2) الراغب، المفردات، ص: 564.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عزب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعد).
(5) الجوهري، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).
(6) الراغب، المفردات، ص: 133.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»